ثنائية (المرأة / النص)في الشعر العربي المعاصر من خلال جميلة بوحيرد الثائرة و الملهمة

▪ د. عبد العزيز شويط
جامعة محمد الصديق بن يحي - جيجل

المقدمة :

ما أعجب أن يختزل وطن في جميلة حين يراد له أن يختزل في امرأة، و أي امرأة إنها امرأة جميلة ، و إن لم تكن المرأة الوطن جميلة فمن عساه غيرها، من دونها ، يكون جميلا ؟ ! و من العجيب أن تشترك ثلاث جميلات في حراسة الوطن في تمثل الوطن في صياغة الوطن ، ثلاث جميلات كن عنوانا لخصوبة الجزائر و لثوريتها الدائمة المتوثبة ، يخصبن الوطن و يخصبن الإبداع .جميلة بوحيرد و جميلة بوباشة و جميلة بوعزة ؟

لكأن الزمن يعيد نفسه في ثنائية المرأة / القبيلة ، ماوية / و طيء ، أو ماوية وجميع قبائل العرب ، لأن المرأة أساس استمرارية الحياة . لقد أعادت جميلة بوحيرد صياغة ثنائية المرأة و القبيلة من جديد ، فصارت على شاكلة المرأة و الوطن ، بل لقد انتهت إلى ثنائية المرأة و الثورة ،و اشترك في ذلك الثوري و الشاعر ، بل و بدأت تتلاشى خيوط الغزل معوضة بخيوط الإكبار ، و ذهبت علائق الشكوى و الحنين و حلت محلها علائق العجب و البطولة ، فلم تعد عند الثوري غاية و إنما صارت وسيلة للوصول إلى غاية الثورة ، هذا ما لا يرضاه الشاعر العربي المعاصر ، فأرجع المرأة الثائرة إلى مقامها الأول كحبيبة و كغاية و كرمز للفداء من خلال جميلة بوحيرد الثورة و هذه هي المرحلة الأولى .

في المرحلة الثانية ، و ربما لأنه وصل إلى غايته الأولى و هي الثورة ، و لأن غايات المبدع متجددة و غير منتهية، فقد راح يبحث عن حبيبة أخرى غير الثورة في زمن عاد فيه من ثورة الحرب إلى ثورة النص ، فأصبح معادل النص هو المرأة وشيء آخر،كما رأينا مع باقي الثنائيات المرأة/ القبيلة والمرأة / الوطن .ف هذه المرة تجاوز الشاعر العربي المعاصر ثنائيته السابقة وثنائية زميله الثوري وهي:جميلة/الثورة،فذهب الغزل في ثنائية كانت جميلة بوحيرد هي طرفه الرئيس ووصل إلى ثنائية قديمة جديدة هي:جميلة،النص.فكيف صاغ الشاعر العربي بقية الثنائيات ليصل إلى الثنائية الأخيرة؟ ومن هم أهم الشعراء الذين تمثلوا هذه الثنائيات ؟ و هل كان القريب من الجزائر من الشعراء جغرافيا هو الأكثر تعبيرا عن جميلة الوطن و جميلة الثورة و جميلة العروبة ، و من هم هؤلاء ذوي القربى ؟.

<u>عن المرأة و الثورة في الشعر و في النضال</u>

لقد تمثلت الثورة الجزائرية باعتبارها ثورة الأحرار ضد من يدعي تمثل الحرية في النص الشعري العربي المعاصر وهو يسعى نحو الحرية،حرية الثورة تنعكس على حرية الشعر.إذن لقد كانت حرية الشعب وحرية الشعر،ثنائية ومعادلة ذات معاليم ومعطيات واضحة،وكان مجهولها الوحيد هو اليأس من الانتصار وتحقيق الحرية ، أو على الأقل هذا ما قال به الشعر العربي المعاصر في المشرق والمغرب العربيين،((وقد كان لهذا الزلزال الثوري أثر بالغ تجاوب معه الشعراء في المغرب العربي ، بدءا من الجزائر،أيما تجاوب،فتغنوا على وقعه بأشعار حماسية نوهوا فيها بنوفمبر و بليلته التاريخية العظيمة عظمة مفجريها))[1] وإذا لم يحس الشاعر و هو شاعر ينبع عن وعي و إدراك ما دام الشعور بالشيء من العلم به ،فمن عساه

يحس ويشعر و يعلم و يعي بحقيقة الثورة و أهميتها ، بعد أن انطلق القطار – كما يقولون – بل و بعد أن يعطينا الباحث الدكتور أحمد بيطام الكثير من نماذج الشعر الجزائرية المتغنية بالثورة الجزائرية المجيدة وببطولاتها وأمجادها ينقل إلينا صورا أخرى شعرية لشعراء من المغرب العربي،حيث نجد من ليبيا الشقيقة الشاعر أحمد الفقيه حسن الذي يقول فيه بيطام:((وبنفس الإحساس و الشعور رسم الشاعر الليبي،أحمد الفقيه حسن صورة لتلبية أحرار الجزائر لنداء الواجب ساعة اندلاع الثورة مبينا كيف آلوا على أنفسهم بأن لا تهدأ ثائرتهم ولا يستقر قرارهم إلا بعد استئصال جذور الشر والفساد من وطنهم الثائر،ثم نوه في الوقت ذاته بتلك التضحيات المقدمة في سبيل تحرير البلاد و العباد.واصفا الحالة المتدهورة لفرنسا لقاء تشديد الخناق عليها من قبل الثوار الذين فرضوا عليها إرادتهم ، فصارت لا تشعر إلا بالخزي و العار،ولا تتلقى سوى الهزائم تلو الأخرى))[2] ثم يأتينا بأبيات من الشعر تجمل ما تفصل فيه من بيان.وهو ما يفعله الباحث مع العديد من الشعراء المغاربة من ليبيا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى حيث يورد لهم أشعارا في الثورة الجزائرية،ثورة النموذج الذي رسم ليُحتذى به في الوطن العربي،وحتى في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ..

جميلة بوحيرد و الشعر الجزائري (فيض من غيض)

جميلة بوحيرد تغنى بها ابناء بلدها قبل أن يتغنى بها غيرهم باعتبارها بطلة وطنية و بطلة عربية و بطلة ثورية و إنسانية ، و لذلك نجد لها ذكرا دائما على ألسنة الشعراء الجزائريين و على رأسهم شاعر الثورة الذي ما إن ذكر السجن و الاعتقال إلا و في ذهنه و في قلبه و شعوره نماذج من مثل الشهيد العربي بن مهيدي و أحمد زبانة و جميلة بوحيرد ، يقول شاعر

الجزائر و شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء نثرا هذه المرة: ((و يتطرق الشاعر إلى إبراز حقيقة الوحدة و التضامن بين المسجونين و مدى وعيهم و إيمانهم بعدالة القضية و تحديهم لقيود السجن و أحبال المقصلة ، مشيدا بالدور البطولي الذي تؤديه المرأة الجزائرية الأسيرة إلى جانب أخيها الرجل فيقول : " و تشيع على المهرجان سحرا أصوات النساء المائجات في رواقهن بالنشيد و الزغاريد تقود جوقتهن (جميلة بوحيرد) الثائرة ....))[3] فقد أرجع لجميلة دورها الريادي و المعتاد في الإنشاد و تأجيج العواطف و شحذ العزائم و الدفع بالرجل إلى المعركة بالزغاريد ، و لكن لجميلة دورا غير هذا ، أكبر بكثير من الزغاريد ، إنه زرع القنابل ، و تخويف العدو ليكف عن رغباته في اضطهاد الشعب الجزائري .

لقد تفنن الشعراء الجزائريون في استخدام الرمز" الجميلي" ، فمنهم من استخدم اسمها مباشرة ، و منهم من جعل لها عتبات و اقترابات قبل أن يصل إلى أسطورتها الجهادية المقدسة ، إنه هاهنا يجعل منها قديسة فلا يخاطبها باسمها احتراما و إنما يجعل لها ألقابا فخرية تليق بمقامها المحترم فيقول الدارسون في ذلك : ((و إلى جانب الشهرة الواسعة التي أخذها اسم "جميلة "في شعر الثورة ، نجد الشاعر الجزائري محمد الصالح باوية يبتدع اسما يرمز به لكل امرأة ثائرة في الجزائر ضد الاستعمار، إنه اسم" فدائية من المدينة ". و هو عنوان قصيدته التي يقول فيها :

مجهولة ، /
تطوي بحارا و تلال /
لا تقتني غير طرود و سلال /
بائعة الأعمار /
في عمر الزهر /

عصفورة /
دوما تبيض النار في حي التتر)) [4] .

من الطبيعي أن يشهد الواقع أن المرأة المجاهدة و المناضلة حين تتقمص دور الرجل تبهر العقول و تستفز الخواطر و تذهل المشاعر و تلهم القرائح ، بالنظر إلى المفارقة التي تحدثها في فعلها غير المتوقع ، لقد صدمت المرأة الجزائرية الجميلة " جميلة " أفق انتظار الشاعر فراح يصدم أفق انتظار القارئ بهذه الحقيقة الصادمة ، امرأة بطلة تقوم بفعل الرجال و تتفوق عليهم في صنيعهم خدمة لهم و لها و للمجموعة التي تنتمي إلى حيزها ، حيز الوطن و حيز الأحرار في العالم ، و لذلك فإن ((أغلب الشعر الذي تغنى ببطولة المرأة الجزائرية و صمودها في الثورة الجزائرية ، كان يدور حول أبرز الفتيات اللائي ذاعت شهرتهن في الآفاق ، بسبب ما اشتهرن به من ثبات و صمود ، و لاسيما الجميلات الثلاث : " جميلة بوحيبرد و جميلة بو عزة و جميلة بوباشة " اللواتي حكم عليهن بالإعدام ، مما جعل مفدي زكرياء يشيد بهن حين يقول :

وحق (الجميلات الثلاث) و بالتي أجابت فراحت للفدا تهجر الحذرا
سنثأر ! حتى يعلم الكون أننا أردنا – فأرغمنا – بإصرارنا الدهرا))[5]

لقد ركز الشاعر الطبيب باوية في النص الذي مر بنا على وظيفة جميلة الحقيقية ، و هي الفدائية ، و لذلك كانت تقريبا هي المقصودة و المعنية بنصه حين رمز إلى ممدوحته بالفدائية من المدينة ، و ((الفدائي هو في أبسط مفهوم ، رجل يفدي الوطن بنفسه : فهو متطوع للموت ، و معرض نفسه لأخطر المخاطر في كل عملية يقوم بها و قد اقتضى نظام الثورة أن تكون فرق من الفدائيين كي تساعد ج . ت . و . في بث الرعب و القلق لدى الخونة و المستعمرين . و يمتاز الفدائي بكونه يرتدي ملابس مدنية غير

متميزة ، مما يفوت على العدو معرفته . و كان ميدان عمليات الفدائيين الجزائريين يتمثل غالبا في المدن و القرى دون البوادي .و كانت مهمة هم تتمثل أيضا غالبا إما في بث الرعب في أوساط الإدارة الاستعمارية ، و إما في تنفيذ حكم بالإعدام تكون ج . ت . و . قد أصدرته في حق عدو الثورة . و كان سلاح الفدائيين غالبا هو المسدسات ، و لا سيما لدى إرادة تنفيذ حكم بالإعدام في عدو . و أما عند الهجوم على منشأة اقتصادية أو بناية عمومية للعدو . فكان الفدائيون يصطنعون القنابل اليدوية .و حين يتعذر ذلك كانوا يلجأون إلى دس القنابل الزمنية المدمرة . و بذلك كان عمل الفدائيين لا يقل نكأ في العدو من أعمال المجاهدين الذين كانوا يهجمون جماعات جماعات ، و من حيثكان الفدائيون يندسون في أي مكان ، و لا يعرفهم إلا المناضلون . و كان الفدائيون كثيرا ما يعمدون إلى التنكر ، فيرتدون في بعض الأطوار ملابس النساء ، و في بعضها غيرها : للتعمية على الحركة و اليهود و أعوان الاستعمار الآخرين .

و خطة الفدائيين الحربية تشبه إلى حد بعيد خطة حرب العصابات التي كان يتبعها ج .ت . و . القائمة على الضرب و الهرب ، حيث أن الفدائي بمجرد أن يضرب ، يختفي في أي مكان : بين أفراد الشعب ، في دكان ، في دار ، في أي مكان ... فلا يعثر له المستعمرون على أثر ، إلا في أحوال نادرة .

و من الصعب التمثيل للأعمال الفدائية الخارقة التي نفذها الفدائيون الجزائريون ، (صفحة موالية) خلال ثورة التحرير . و يمكن إعطاء مثل لذلك يحضرنا الآن ، و هو تنفيذ حكم الإعدام في الخائن علي شكّال أمام رئيس الجمهورية الفرنسية روني كوتي بباريس .

و من دلالات هذه العملية أن الثوار لو كانوا حقا خارجين عن القانون لكانوا قتلوا رئيس الجمهورية الفرنسية بكل سهولة ، و الدليل على ذلك أنهم استطاعوا أن يقتلوا الخائن شكال و هو منه على مدى أقل من مزجر كلب ، و تحت حماية مشددة ضربها البوليس الفرنسي . فهذه العملية ذات مغزى سياسي عظيم .))[6] ، و لو لم يكن هؤلاء الفدائيين على درجة عالية من الرزانة و الدقة و الشعور بالمسئولية و الإيمان في الهدف الذي يريدون تحقيقه و بالنتائج الوخيمة في حال فشلهم لما أقدموا على ذلك و لما نجحوا في هذا المسعى ، عمل الفدائي عمل الصناديد من الرجال الأبطال ، عمل القلوب الجبارة التي لا يتطرق إليها الخوف و اليأس و الانهزامية و الشك في عدالة القضية ، و لذلك ما كان أحد أن يتوقع هذا من امرأة ، و قد كانت كذلك فلم يخف قلبها الصغير الأنثوي ، و لم ترتعد فرائسها و لم يظهر على وجهها أدى علامة من علامات الرهبة و الخوف ، فاستحقت لقب البطولة و احترام القديسة ، و كذلك كانت جميلة .

لقد كانت جميلة بوحيرد رمزا من رموز الثورة الجزائرية الحديثة ، أسطورة في الشعر العربي كأساطير بابل و آشور و سومر و بلاد ما بين النهرين ، كأساطير وادي النيل و بلاد الإغريق و لم تكن ككليوبترا كما تصورها العقلية الرومانية ، لقد كانت جميلة مترفعة عن كل الرغبات و الشهوات و مع ذلك فهي امرأة عادية و بسيطة . تنقل إلينا الأستاذة فطيمة بوقاسة في مذكرتها للماجستير نبذة عن حياة جميلة بوحيرد و تشير إلى مراجع و مصادر أخذها مما يمكن مراجعته في مواضعه عندها ، أخذنا منها ما يلي : ((جميلة من مواليد عام 1935 ، بالعاصمة، فتحت عينيها في بيت يعشق أهله الوطن، فاكتسبت من عائلة وطنية ...إخوتها)إخوة أمها(، وأبناء عمومتها كانوا منتمين إلى « النضال بالوراثة، فأمها » .مختلف الأحزاب

الوطنية، وأحدهم سجن وعذب وكان عمره ستة عشر سنة فقط كان انضمامها إلى جبهة التحرير الوطني صعبا -باعترافها -وتم عن طريق إحدى الصديقات المناضلات في أحد الأحزاب، ويعد تاريخ 1956 نقطة التحول الكبرى في مسار حياتها، حين قررت ترك معهد الخياطة -الذي كانت إحدى طالباته - لتلتحق بالثورة، ولما يتجاوز عمرها آنذاك العشرين عاما.

كلفها بادئ الأمر عمها مصطفى بوحيرد بخدمة وإطعام ياسف سعدي، وعلى لابوانت وعليلو، لتعتمد فيما بعد فدائية متمرسة قي رمي القنابل التي كان منزلها بالقصبة مصنعا لها، كانت أهم عملية لها تلك التي استهدفت ملهى ميلك بار يوم 26 جانفي 1957 ، وهي العملية التي جعلتها من المطلوبين من قبل السلطات الاستعمارية، ليتم القبض عليها يوم 09 أفريل 1957 م بعد أن أصابتها رصاصة المظليين الفرنسيين في رجلها إثر عملية مطاردة رهيبة في شوارع القصبة وقد عثر بحوزتها على وثائق هامة تخص جبهة التحرير الوطني، ووثائق أخرى موجهة إلى المجاهد المعروف "عبان رمضان "مبلغ مالي معتبر قدره 800.000 فرنك فرنسي. ومن هذا التاريخ، تبدأ مأساة جميلة -ولما تكن تعني للعالم بعد شيئا -فقد تعرضت لأشبع لقد تعرضت في 29 أفريل 1957م إلى : « أنواع التعذيب، وأشدها إيلاما، وأكثرها استفزازا، تقول استنطاق، وتعذيب متواصلين، وذلك في المشفى العسكري بمايو، لقد قاسيت لمدة أيام عذابات ...» .الضرب العنيف، والكهرباء(...) إلى أن أغمي علي فصرت أهذي))[7] و هذا ما يثبت واقعية المرأة و بساطتها و تدرجها في العمل الكفاحي الموثق و التاريخي ، فهي أسطورة حقيقية موثقة .

تواصل الزميلة فطيمة بوقاسة في سرد حياة جميلة بوحيرد فتقول:((وهذا ليس كل شيء، بل تجرأ أحد معذبيها على ملامستها ملامسات داعرة ...ولما استنكرت ضربوني على جرح يدي : « الجميع، مهددا إياها باستخدام سنيغالي

لاغتصابها، تقول (...)وأبقوني هكذا أتعذب كل يوم بل كل ساعة، ولم يجلبوا لي طبيبا ليكشف علي إلا بعد أشهر، (4وكان سجن أخويها، ...»(فأعطى تقريرا خاطئا عن إصابتي وغم وجودها، ووجود آثارها وتعذيبهما وخصوصا أصغرهم" إلياس "الذي لم يتجاوز عمره الرابعة عشر -إحدى وسائل الضغط النفسية لجرها إلى الاعتراف بمكان ياسف سعدي، ولابوانت.

ولما لم تنل منها فرنسا شيئا، صدر الحكم بإعدامها مع زميلتها جميلة بوعزة، وهذا يوم13 جويلية 1957 م ولم يعلن الحكم إلا في يوم 15 من الشهر نفسه، بسبب عطلة 14 جويلية ذكرى الثورة الفرنسية)والتي و يالعجائب الصدف، من شعاراتها الرنانة الكثيرة :العدالة -الإخاء- المساواة؟(!!!! تقول جميلة واصفة ذلك اليوم ":كان أجمل يوم في حياتي لأنني كنت مقتنعة بأنني سأموت من أجل أروع قصة في الدنيا (...) ومازلت أذكر أننا عدنا من قاعة المحكمة إلى السجن، وصرخ الإخوة المساجين يسألوننا عن مضمون الحكم ... أجبنا بالنشيد الذي ينشده المحكومون بالإعدام، الله أكبر، تضحيتنا للوطن"، كنت أنا وجميلة بوعزة (...) وكانت لحظة مؤثرة فآلاف : « ومطلعة ...»وآلاف الأصوات رددت معنا النشيد محاولة تشجيعنا .

وكان من الممكن أن يمر قرار إعدام جميلة، كما تمر حوادث الإعدام الأخرى – وما أكثرها -في هدوء، لو لم يظهر إلى ساحة القضية، أحد أشهر محاميي العالم، السيد جاك فرجيس ليتولى بتصميم الدفاع عن جميلة وهو المحامي الذي قابله القاضي بالرفض، ومنع الاعتماد عنه، بل تم التخطيط لاختطافه، ومحاولة اغتياله، خصوصا بعد تمرد جميلة بوحيرد على المحكمة، ورفضها الإجابة عن الأسئلة في غيابه. وكل هذا كان له أثر في تدويل قضية جميلة التي أثار الحكم فيها بالإعدام على أربع نساء أخريات إلى جانب جميلة – عاصفة هوجاء في الرأي العام العالمي ما دفع بفرنسا إلى إلغائه، تهدئة))[8]

فهزمت هذه المرأة أعتى قوة في العالم آنذاك و جرحت كبرياءها و أذلتها ، و هي فرنسا ، هزمتها ففي ساحة المعركة و هزمتها في ما تشيعه عن نفسها من مبادئ الثورة الفرنسية و هي العدالة و الأخوة و المساواة ، و كانت جميلة دائما تنتصر في كل ما تخوضه من معارك حتى حينما يكون الحكم فرنسيا تنتصر جميلة ، إنها مدعاة للأسطرة ، مدعاة لأن يلهج بذكرها كل شعراء العالم كما لهجوا بذكر بطلة الحرية العالمية ضد النازية " جاندارك " .

ليس غريبا على المرأة الجزائرية فعل ذلك و تحقيق الانتصار و البطولة بعد تحقيق المعجزات النضالية ، و ليس غريبا على أمة أنجبت لالة فاطمة نسومر أن تنجب امرأة كجميلة ، و ما جميلة إلا امرأة و حرة من حرائر الجزائر اللواتي لا عد و لا إحصاء لهن ، ((لقد كانت حرب التحرير الجزائرية مناسبة ، استطاعت فيها المرأة الجزائرية بفضل شجاعتها و صمودها أن تكسب الرهان ، و تثبت لأخيها الرجل مساواتها له ، و هما يشتركان معا في مواجهة الموت ، من أجل تحقيق الهدف المنشود ، و لنا في قصيدة باوية ما يؤكد ذلك ، حين يقول على لسان ثائرة ، قررت بأن تترك فلذة كبدها و تلتحق بالجبال :

إن أنا غبت طويلا و صحا طفلي ورائي خبريه إن دعاني
خبريه ، إنني في الكهف في الساحة في الحقل و في كل مكان
هذه رشاشتي الصغرى لطفلي ، إنها قصة قومي و كياني))[9]

و بهذه الشهادة الحية في الفداء و التضحية بالنفس و النفيس و أي شيء أنفس من الولد و الكبد و هو من زينة الحياة الدنيا ؟ ! و مع ذلك فقد ضحت المرأة الجزائرية به في سبيل ووطنها و قومها و شعبها الذي يعني عزتها و كرامتها و عرضها و شرفها .

جميلة بوحيرد و شعر المغرب العربي

من الطبيعي أن يتآزر الجيران معنا في ثورتنا ، و خاصة إذا كان هؤلاء الجيران يجمعهم بنا الجنس و الدين و الماضي و وحدة المصير المشترك ، إننا في عزم على وحدة معهم استراتيجية فعالة هي وحدة المغرب العربي بدوله المعروفة . ثم لا ننسى أن هذه الدول هي بدورها عانت من الاستعمار نفسه و هو الاستعمار الفرنسي أو عانت من شقيقه و هو الاستعمار الإيطالي ففي حال ليبيا ، و لذلك كان الأشقاء في حاجة ماسة إلى استلهام أمجادنا و بطولاتنا ، كما كنا في حاجة ماسة إلى مؤازرتهم و عونهم باليد و باللسان و بالقلب ، و أكبر مثال على ذلك تغنيهم برموزنا و أساطيرنا البطولية ، مثلما نجد ذلك عند شعراء المغرب الأقصى الذين تفاعلوا مع ثورتنا تفاعلا جيدا ، كما تفاعلنا معهم و تضامنا معهم في حادثة نفي ملكهم محمد بن يوسف (محمد الخامس) و نحن تحت نير الاستعمار ما نزال ، ((و قد كانت شخصية المجاهدة الجزائرية " جميلة بوحيرد " التي مجدها أغلب الشعراء الذين كتبوا عن القضية الجزائرية ، تحمل طابعا و صبغة أسطورية خارقة ... فنحن نعرف أن شعراءنا في المشرق و المغرب قد انفعلوا بهذه الشخصية " حتى لم تعد جميلة مجرد مناضلة وطنية عرفتها ثورة الجزائر ، بل و صارت رمزا للنضال الإنساني في سبيل التحرر "[10] و يعتبر الشاعر المغربي إدريس الكتاني من الشعراء المعجبين ببطولة جميلة بوحيرد و بصمودها أمام ويلات التعذيب في صبر و شجاعة ، محتملة شتى أنواع المعاناة النفسية و الجسدية في سبيل عزة الجزائر و حريتها .

و مما يؤكد أن جميلة بحق هي رمز البطولة و الفداء هو هذا التحدي و هذا الإصرار أمام جلادها و الثبات على موقفها ، و الاستعداد الكامل للموت في سبيل بلادها . و قد عبر هذا الشاعر عن هذا الموقف البطولي قائلا :

لم ينس (جميلة) مع جلاديها القساة/
سفاكي الدماء/
و الأعراض/
يوم سخرت من جنود(ماسو)و(سالان) /
محترفي الحروب /
و مجرميها /
ربطوا جسمها الضعيف بسلك الكهرباء/
و انثنوا يجلدونها /
و يحرقونها /
و أمام قضاتها انتفضت مجلجلة /
إنني أحب بلادي /
و أمتي/
أريد أن أراها حرة مستقلة /
إنها ملء فؤادي))[11]

و في هذا الموقف من الشاعر تمجيد واضح لبطولات الشعب الجزائري و شهادة معتبرة بعدالة قضيته و دفع قوي لعزائم ثورته الخالدة و إدانة لا غبار عليها للعدو الغاشم ، كل ذلك من خلال التغني و الاحتفاء ببطلة الجزائر التي جلبت الدعم و المؤازرة لها و للثورة الجزائرية من جميع الجيران و الأشقاء بصمودها و بطولتها و حسن تصرفها .

في الحقيقة لقد اختلطت دماء الجزائريين بدماء التونسيين منذ القديم ، و توطدت عرى الصداقة منذ سال الدم المشترك في ساقية سيدي يوسف ، و لذلك احتضن التونسيين الثورة الجزائرية و احتضنوا الطلبة الجزائريين في جامع الزيتونة المعمور ، هؤلاء الطلبة هم فيما بعد نخبة الجزائر الثورية و

السياسية و حتى الثقافية ، و لذلك ليس غريبا أن يمجد الشعراء التونسيون ثورة الجزائر و ليس غريبا أن يشدوا بأبطالها و رموزها ، و على رأسهم رمز و أسطورة " جميلة بوحيرد " فـ((من تونس نجد الشاعر البشير المجدوب هو الآخر يتخذ من اسم " جميلة بوحيرد" رمزا للمرأة المغاربية في نضالها و كفاحها ضد الاستعمار ... يقول في جميلة :

جميلة أختنا ...مثل النبل رسمت لنا يا جميلة /
مثل العز و الفدى يا نبيلة /
قدوة كنت للفتح الجليل يزحف زحفا /
قدوة كنت للمغربية تنصر نصرا))[12]

و لم يكن الشعراء في تونس بعيدين عن الثورة الجزائرية ، فهم يسمعون بكل صغيرة و كبيرة تحدث داخل التراب الوطني ، و يؤلمهم ما تقترفه االسلطات الإستعمارية من جرائم ، كيف لا و هم قد جربوا هذه االمعاناة من قبل المستعمر ذاته ، و ليس أليق بهذا الشعور من التعاطف و المؤازرة بالتغني بالبطولات ، و لذلك ((في قصيدته " وجوه " تغنى الشاعر التونسي أحمد المختار الوزير ببطولة جميلة بوحيرد ، و في القصيدة لازمة رددها الشاعر مرتين ، و فيها يصف جميلة على أنها هي الوجود ، و هي الحياة ، ثم هي الحب بالنسبة لشعبها حين يقول :

جميلة أنت الوجود بما تريدين مختارة راضيه
و أنت الحياة و أكوانها بما فيك من عزمة ماضيه
و ذاك الإله السخي السناء يبارك أحلامك الزاكيه
هو الحب كوثره زاخر و أثمار جنته دانيه
فكوني لقومك كوني لهم من الحب آيته العاليه

و يتطرق الشاعر إلى وصف بسالة جميلة و ثباتها و تحديها لأصناف التعذيب و أساليب المسخ و التشويه فيقول :

عنيف من الشر لاذوا به لتحطيم عزمتها الماضية
فما خدشوا كبرياء الصمود و لا قلقلوا الصخرة الراسيه
و هيهات هيهات أن يفعلوا و في قلبها القوة العالية
...../...
و قامت جميلة من دونهم قيام المدججة الحامية
تريهم سخافة ما يفعلون ببسمتها العذبة الزارية))[13]

نعثر أيضا على شاعر تونسي آخر و هو الهادي نعمان ، يتضح التشبيه البليغ عنده وضوحا رائعا حين يجسد المادي في المعنوي ، حيث ــ ((تضحى جميلة عند الشاعر التونسي الهادي نعمان ، هي النصر و المجد و العلا ن و العربون المقدم فداء للوطن ، أما حزمها فهو درس للورى ، و عزمها العالي هو في حد ذاته حياة ن مثل ما أن مودتها خلود و رفعة و كل ذلك تمثله يوم الوقع فتاة قدمت حياتها قربانا للحرية و الإستقلال .و في هذا المضمار يقول الشاعر في كلام فيه نثر كثير :

جميلة أنت النصر و المجد و العلا و أنت العربون ليفنى غزاة
ففي حزمك السامي لدرس إلى الورى و في عزمك العالي الشريف حياة
و في موتك الدامي خلود و رفعة تمثلها يوم الفداء فتاة))[14]

ألم نقل إن المجاهدة الجزائرية تضرب المثل ؟ ! فهي قدوة و أنموذجا للفداء و التضحية تعجز أمامه الأفهام و التصورات و التكهنات و التوقعات ، ((و تصبح بطولة جميلة بوحيرد مثلا يقتدى به في طلب العزة و الكرامة ، و مرد هذه المثالية يعود إلى تضحياتها بأعز ما تملك في سبيل حريتها و عزة بلادها ، و هل هناك أعز ما تملكه المرأة و تحافظ عليه من

عرضها و شرفها ، و هذا ما كان محل عبث و طعن لها و لوطنها من قبل الأعداء ، و هذا ما أهل جميلة لأداء هذا الدور البطولي فصمدت أمام وسائل القمع و البطش المسلطة على أنوثتها و جسمها النحيل ، و كأن أنفاسها تصدر عن أنفاس أمتها ، و عزمها هو عزم الجزائر الثائرة ، مما جعل الأعداء يبالغون ففي تشويه خلقتها و المساس بعفتها ، و هدفهم من وراء ذلك زرع الفزع و الهلع في قلوب الجميع لا، حتى لا تلتهب نار الثورة أكثر ، و لا يتحول الغضب الجماهيري إلى بركان يأتي على الأخضر و اليابس ، و قد بر الشاعر التونسي البشير المجدوب عن ههذه البطولة فقال في نثرية واضحة :

جميلة أختنا ... مثل النبل رسمت لنا يا جميلة /

مثل العز و الفدى يا نبيلة /

طعنتين طعنوك ...في عرضك المصون في عزتك القومية طعنوك /

عجبا للأقدار كيف اصطفتك ... امرأة لدنة للمهام اصطفتك / ...))[15]

و في الحقيقة إن إيمان شعراء تونس بقدرة الفرد الجزائري الأخ و الجار و الصديق عميق جدا ، فالشاعر التونسي يدرك جيدا إدراك الخبير المجرب أن المرأة الجزائرية بعزيمتها و صمودها و رباطة جأشها تحطم الصخور و تحقق المعجزات ، لقد كان ذلك حتى قبل ظهور أسطورة جميلة بوحيرد و ذيوعها ، ((و يصور الشاعر التونسي محمد العروسي المطوي بطولة المرأة الجزائرية و تحملها لأعباء الكفاح المسلح إلى جانب أخيها الرجل في ذرى الجبال ، و حيثما تكون الثورة موجودة ، و كيف أنها مصممة على تأدية الواجب ، فيقول على لسان فتاة تخاطب أخاها حين عزم على الرجوع إلى جبال الأوراس ، بعد تأديته للمهمة التي كلف بها ، ساقهذا في شكل الشعر الحر :

...خذني معك /
خذني معك ...أنى ذهبت /
فإنني ظمأى إلى ما تشربون /
خذني معك ... أنى قصدت /
فإنني ظمأى إلى نبع "الحياة " /
ظمأى إلى نبع الفدا /
خذني معك /
و ارحم دمائي الثائرة /
فلقد عزمت على الجهاد /
جنبي لجنب الثائرين)) [16]

جميلة بوحيرة و شعر المشرق العربي

تحصي الأستاذة بوقاسة فطيمة في بحتها للماجستير ، و بالذات في الملحق الذي جعلته للمذكرة على مدار 111 صفحة من المذكرة أكثر من خمسين قصيدة و بالضبط خمسا و خمسين قصيدة (55) هي على التوالي : لأحمد عبد المعطي حجازي قصيدة "القديسة" ،و لأحمد مختار الوزير قصيدة "جميلة بوحيرد"، و لأيوب صبري عباس قصيدة "يقين فتصميم " ، و لبدر شاكر السياب قصيدة " إلى أختي جميلة " ، و لجلال الحنفي قصيدة " جميلة و زهرة " ، و لجميل صادق حيدر قصيدة " جميلة : وهم و سؤال " ، و لجواد البدري قصيدة " أنا فكرة " ، و لحاتم غغنيم قصيدة " جميلة " ، و لحسن البياتي قصيدة " بطاقة معايدة إلى جميلة " ، و له أيضا قصيدة " ضحكة جميلة " ، و لحسن عبد الله القرشي قصيدة " ثوار الجزائر " ، و لحسن فتح الباب قصيدة " رسالة من جميلة " و لحسين بحر العلوم قصيدة "

جميلة" ،و لحسين بحر العلوم قصيدة "جميلة " ، و لحميد حبيب الفؤادي قصيدة " جميله" ، و لحياة النهر قصيدة " أمجاد و بطولة " ، و لخالد الشواف قصيدة "النصر للجزائر" ، و لخضر عباس الصالحي قصيدة "إلى أختي جميلة " ، و لسعد إبراهيم قاسم قصيدة " البطلة جميلة " ، و لسليمان العيسى قصيدة "من ملحمة الجزائر " و لسليمان الهادي طعمة قصيدة "إلى أختي جميلة " ، و لسليم الرشدان قصيدة " في قافلة الأبطال" ، و لشاذل طاقة قصيدة "الجزائر و الفجر و الشهيد " ، و لشاذن طاقة أيضا قصيدة " الفجر في وهران "، و لشاكر جويد أطميش قصيدة "إلى المجاهدة الجزائرية "، و لشاكر ناصر حيدر قصيدة "جميلة " ، و لشفيق الكمالي قصيدة " جميله"، و لصادق الصائغ قصيدة "غنوة وداد لجميلة بوحيرد "، و لصالح الظالمي قصيدة "عذبوا جميله " ، و لصبرية الحسو قصيدة "جميلة " ، و لضياء الدين الخاقاني قصيدة "إلى كل جميله في فلسطين " ، و لطارق الطاهري قصيدة "الكفاح الخالد " و لعبد الزهراء عاتي قصيدة "جمىلة الجزائر "، و لعبد الصاحب ياسين قصيدة "إلى جميلة " ، و لعبد العزيز الحلفي قصيدة "جميلة تقول " ، و لعبد الكريم الدجيلي قصيدة "جميلة " و لعبد الوهاب البياتي قصيدة "المسيح الذي أعيد صلبه " ، و لعربي، شاعر مجهول قصيدة "جميلة " ، و لعلي الحلي قصيدة "عام جديد" ، و له أيضا علي الحلي قصيدة "قربان على طريق الشمس "، و له أيضا علي الحلي قصيدة "من جاندارك إلى جميلة بوحيرد " ، و له أيضا علي الحلي قصيدة "من جميلة بوحيرد إلى نادية السلطي"، و لعيسى الناعوري قصيدة "جميلة الجزائرية "، و للميعة عباس عمارة قصيدة "جميلة " ، و لمحمد الخليلي قصيدة "جميلة " ، و لمحمد الفيتوري قصيدة "رسالة إلى جميلة " ، و لمحمد المصري قصيدة "جزائرية "، و لمحمد راضي جعفر قصيدة "فتاة العروبة "، و لنازك الملائكة قصيدة "نحن و جميلة "، و لنجيب سرور قصيدة "الجمعة

الحزينة " ، و لنجم الدين عبد الله الجبوري قصيدة "جميلة " ، و لنزار قباني قصيدة "جميلة بوحيرد"، وله أيضا نزار قباني قصيدة "جميلة بوحيرد " ، و للجزائري صالح خرفي قصيدة"استريحي يا جميله"،ولمواطنه أبو القاسم خمار قصيدة"من وحي الذكرى" [17]

و هي قصائد موزعة على الشكلين الحر و العمودي ، و يمكن استكناه بعض الخروجات النثرية في كثير من القصائد المذكورة ، كما نبه إلى ذلك الدكتور مصطفى بيطام .

إن مجرد إطلالة على عتبة العنوان في النصوص التي ذكرنا أصحابها و عناوينها يلاحظ تكرار اسم جميلة في أغلب القصائد ، مما يحيل إلى ثبات الرمزية الأسطورية لهذه المرأة و نسبة الكثير من البطولات و الخوارق إليها على عادة الشعر العربي الغنائي المحتفي بالخيال و المبالغة .و نحن نعلم أن في ذكر الاسم في القصيدة تعظيم للمذكور أو الممدوح .

الدكتور عثمان سعدي سفير الجزائر في بغداد يجمع لنا العديد من الأشعار التي قيلت في الثورة الجزائرية ،و منها الأشعار التي قيلت في جميلة بوحيرد ، يمكن للمستزيد أن يرجع إلى هذا الكتاب لاستكشاف كيف عبر شعراء العراق عن أسطورة الكفاح و النضال جميلة بوحيرد .[18] و كمثال على ذلك تحليله لقصيدة نازك الملائكة " نحن و جميلة "

الخاتمـــــة :

الحقيقة إن الذهول ليصيب المطلع على هذا الكم الهائل لشعراء الحداثة العربية الذين يذكرون بطلة الجزائر " جميلة بوحيرد " في أشعارهم ذكر التبجيل و الاحتفاء و التمجيد و الرمزية البطولية ، حتى جعلوا منها بطلة قومية عربية و إنسانية في سبيل النضال من أجل الحرية و الاستقلال ، هل

يتعلق الأمر بشخص أسطرته المخيلة الشعبية العربية و من ثم الشعر العربي كصلاح الدين الأيوبي المخلص و الغازي ؟ ربما تكون هذه المرأة في العصر الحديث أكثر انتشارا في الشعر العربي من صلاح الدين للاعتبارات التالية :

- نزوع الشعر العربي نحو الحرية الشكلية و الحرية المضمونية . (الوزن و القافية و عمود الشعر) .
- نزوع الشعر العربي نحو الثورة الشكلية و الثورة الوظيفية و مصاحبته لحركات التحرر .
- انتشار الطباعة و الصحافة و وسائل الإعلام الأخرى (السمعي البصري)
- موجة الاستعمار الشاملة للوطن العربي و ما صاحبها من موجات التحرر و حركاته و لاسيما أيضا موجات مقاومة الامبريالية العالمية. و انخراط الشعراء الشباب في الكفاح المسلح و الكفاح بالقلم.
- كون جميلة بوحيرد امرأة ، و المرأة في العقلية العربية تقام من أجلها الحروب لا أن تقوم هي بالحروب ، مما خلق لدى الشارع العربي و لدى النخب العربية مفارقة عجيبة في هذه البطولة غير المتوقعة من مخلوق ضعيف البنية كالمرأة .

هذا و قد توزع الشعر الذي قيل في جميلة بوحيرد بين الكثرة و الجودة و سرعة الانتشار (التلقي) بالنظر إلى انتشار شعر المرأة و بالنظر إلى ارتباطه في أغلبه بالشعر الحر و موجاته في العراق و بلاد الشام ، و خاصة حين كتب فيها رواد الشعر الحر و هم نازك الملائكة و بدر شاكر السياب و عبد الوهاب البياتي و زاد عليهم شاعر المرأة مداح النساء كعمر بن أبي

ربيعة المخزومي و هو نزار قباني ، فانتظر العرب شعرا غزليا في المرأة ففوجئوا بشعر غزلي في أسطورة أو خليط بين المدح التمجيدي و الغزل بالخصال الفاضلة لدى امرأة ليست ككل النساء .

الهوامش :

[1]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ، د ط ، 1998 ، ص : 24 . نقلا عن عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج 04 ، ص : 395 .

[2]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية، ص : 34 .

[3]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية،ص: 156 . و كلام مفدي زكريا نقلا عن مقال له بعنوان : " كيف نتحدى الموت أمام المقصلة"جريدة المجاهد الجزائرية ، العدد 48 ، بتاريخ 10 أوت 1958 ، ص : 09 .

[4]– مصطفى بيطام:الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي،1954– 1962،دراسة موضوعية فنية،ص: 412، 413.شعر محمد الصالح باوية نقلا عن ديوان أغنيات نضالية ، ص : 83 .

[5]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ،دراسة موضوعية فنية ،ص: 56 . شعر مفدي زكرياء نقلا عن ديوان اللهب المقدس،منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية ،الجزائر ،د ط، 1973 ، ص : 318 .

[6]– عبد الملك مرتاض: المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية ، 1954 – 1962 .ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د ط ، 1983 ، ص : 86 ، 87 .

[7]– فطيمة بوقاسة ، جميلة بوحيرد الرمز الثوري في الشعر العربي المعاصر ، رسالة ماجستير مخطوطة ،جامعة منتوري ، إشراف أ د يوسف وغليسي ، 2006 ، 2007 ، ص 72ناقص 16.

[8]– فطيمة بوقاسة،جميلة بوحيرد الرمز الثوري في الشعر العربي المعاصر، ص: 73ناقص 16

[9]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية ، ص : 56 ، الشعر لباوية نقلا عن ديوانه أغنيات نضالية ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، د ت ، ص : 32 .

[10]– أخذ هذا الكلام من : عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، قضاياه و ظواهره الفنية ، دار الفكر العربي ، د ت ، ص : 217 ، 218 .

[11] – مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية ، ص : 411 . شعر الكتاني نقلا عن مجلة دعوة الحق وزارة عموم الأوقاف ، الرباط ، العدد 08 ، السنة 02 ، ماي 1958 ، ص : 62 .

[12]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية ، ص : 412 ، شعر البشير المجذوب نقلا عن مجلة الفكر التونسية ، العدد 09 ، السنة ، 04 ، جوان 1958 ، ص 55 .

[13]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية ، ص : 57. شعر أحمد المختار الوزير نقلا عن ديوان من شعر الوزير ،دار النشر التونسية ، بوسلامة تونس، د ط ، 1378 هـ ،ص : 67 – 76 .

[14] – مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية ، ص : 58 . شعر الهادي نعمان نقلا عن ديوان النغم الحائر ، مكتبة النجاح ، تونس ، 1961 ، ص : 53 .

[15]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية ، ص : 58، 59. شعر البشير المجدوب نقلا عن مجلة الفكرالتونسية ، العدد 09 ، السنة 04 ، جوان 1959 ، ص : 55 ، 56 .

[16]– مصطفى بيطام : الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ، 1954 – 1962 ، دراسة موضوعية فنية ، ص : 59، 60 . شعر محمد العروسي المطوي نقلا عن ديوان فرحة شعب، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، د ط ، 1974 ، ص : 50، 51 .

[17] – فطيمة بوقاسة ، جميلة بوحيرد الرمز الثوري في الشعر العربي المعاصر ، الملحق .

[18] – عثمان سعدي : الثورة الجزائرية في الشعر العراقي ، القسم الأول ، الدار الوطنية للتوزيع و الإعلان، العراق ، د ط ، 1981، ص : 418 .